



كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة غرداية

مجلة إسهامات للبحوث والدراسات

E-ISSN.2543- 3636 / P-ISSN.2543- 3539

<http://ishamat.univ-ghardaia.dz/index>

مجلة إسهامات للبحوث والدراسات

إشكالية استخدام المنهج الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية الاتصالية.

الأستاذ الدكتور تمار يوسف

كلية علوم الإعلام والاتصال (جامعة الجزائر 03)

youceftemmar@yahoo.fr

مخلص.

لا تحظى الدراسات الكيفية Qualitatives و بالأخص المنهج الإثنوغرافي Ethnographie في الدراسات الإعلامية الاتصالية عندنا، بشعبية علمية كبيرة ولا ندري صراحة إلى ما يعود ذلك؟، ينبغي فقط الانتباه إلى أهمية هذا النوع من الدراسات وفائدة المنهج الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية كبرا جداً، لذلك لا يريد هذا المقال تقديم درس في منهجية المنهج الإثنوغرافي، بقدر ما يحاول التركيز على تقديم البحث الإثنوغرافي كمهنية تجديدية قادرة على معالجة مشكلات الواقع الإعلامي الاتصالي، وتبيان أهميته في معالجة ودراسة بعض الظواهر منه، خاصة تلك التي لا يكفي مقاربتها كمياً، ولا معالجتها دون التوغل في مكوناتها و معاشية تفاعل عناصرها والنظر في تمظهرها، ومن جهة أخرى، يسعى المقال إلى ربط الخصائص التقنية للمنهج الإثنوغرافي، بأسباب العزوف عن تطبيقه الواسع على الظواهر الإعلامية الاتصالية عندنا.

الكلمات المفتاحية: البحث الكيفي، المنهج الإثنوغرافي، تقنيات التحليل.

RÉSUMÉ

Cet article analyse et discute des apports méthodologiques de la méthode ethnographie pour les études consacrées aux sciences de l'information et de la communication. Il essaye de faire une investigation croisée entre les différentes techniques de la méthode ethnographique, et le faible enthousiasme de certains chercheurs quand à la pratique de celle-ci dans leurs études.

La méthode ethnographique, et très pertinente dans l'investigation de certaines problématiques liées aux phénomènes de l'information et de la communication, surtout avec l'émergence des nouvelles technologies, qui aspirent à des nouvelles approches méthodologiques, pour les cerner, mais ce constat est loin de faire l'unanimité au sein de nos étudiants et chercheurs. Pourquoi ?

MOTS CLÉS : Etudes qualitative, La méthode ethnographique, techniques d'analyse

مقدمة.

يظهر للكثير من المختصين في المنهجية عندنا، أن الدراسات الكيفية بصفة عامة والمنهج الإثنوغرافي بصفة خاصة، لا تحظ بشعبية علمية كبيرة عند الكثير من باحثينا وطلابنا، رغم ما نعرفه عن هذه الدراسات وعن المنهج الإثنوغرافي من قدرتها على إنتاج بيانات غنية وعميقة مقارنة بالمنهج الأخرى، إلى جانب قدرتها أيضاً على توفير فهماً أوسع للعمليات الاجتماعية في مقارنة بعض إشكاليات الإعلام والاتصال.

إن الملاحظة السابقة، صحيحة إلى حد ما، حيث تعتبر الدراسات الكيفية في الإعلام، الحلقة المفقودة في توجهات البحوث العلمية الخاصة بهذا الميدان، فلم تتعدى نسبتها 2 % من الدراسات المنجزة في هذا الشأن، بينما نالت المناهج الأخرى (المنهج المسحي، منهج دراسة الحالة، المنهج التاريخي، المنهج المقارن، المقاربة السيميولوجية ..) حصة الأسد من تلك الدراسات.

لقد أنتج ظهور التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال، سلوكات جديدة أو على الأقل مغايرة عن تلك التي سادت إلى وقت قريب في تعامل الفرد مع وسائل الإعلام، والتي حظيت بعناية علمية كبيرة منذ ثلاثينيات القرن الماضي، فظهرت مدارس فكرية ونظريات علمية ومنهج وتقنيات بحثية حولها، نجحت - إلى حد ما - في تفسير الظاهرة الإعلامية الاتصالية بخاصة في سياقاتها الاجتماعية المختلفة، لكن الأمر قد يحتاج إلى أكثر من ذلك في تفسير مخرجات هذه التكنولوجيات الحديثة من سلوكات وتصرفات ومواقف، تكون أكثر عمقاً مما الذي يجعل هذا النوع من الدراسات لم يحظ بالأهمية اللائقة في الأوساط العلمية عندنا.

مبادئ المنهج الإثنوغرافي.

يُعد المنهج الإثنوغرافي من بين أهم المناهج المُستعملة في الدراسات الكيفية وأشهرها، فكان ظهوره مرتبط بصفة مباشرة بعلم الأنثروبولوجية والإثنولوجيا، حيث يشير عند المختصين في هذين المجالين، إلى نمط من البحث الاجتماعي يهتم بدراسة جماعة اجتماعية معينة في مدرسة، مصنع، نادي، جامعة ... الخ دراسة كلية من خلال ثقافة هذه الجماعة والتعرف على مفاهيمهم وإدراكاتهم الداخلية.

بهذا المفهوم للمنهج الإثنوغرافي، حاول كل من مرسل موس Marcel Mauss 1926، برونيسلو منيلوفسكي Bronislaw Malinowski 1963، و قريتش كليفورد Geertz Clifford 1973، وغيرهم فهم الثقافات المتباعدة ثم امتد استعماله مع مدرسة برنهام البريطانية ليشمل السياقات الحضرية (Cléret, P 52)، و مع مدرسة شيغاغو الأمريكية التي استلهمته من ثانيا التفاعلات الرمزية، l'interactionnisme symbolique بقيادة جورج هيربرت ميد Georges Herbert Mead والتي كان من بين أهدافها، الطبيعة الرمزية في الحياة الاجتماعية.

أما في ميدان الاتصال، فيمكن الحديث عن مقارنة "أنثروبولوجيا الاتصال" والتي جاءت

كتخصص لأول مرة سنة 1967 من خلال كتابات عالم اللسانيات الأمريكي ايمس دال Hymes Dell (1927 – 2009)، حيث اقترح استثماراً اثنوغرافياً للسلوكيات و الوضعيات والأشياء الموجودة عند جماعة معينة على أساس أن لها قيمة اتصالية، تتبادل على إثرها المعاني والأدوار بين أفراد الجماعة. المبدأ العام الذي بني عليه هذا المنهج، هو أن الباحث يحصل على المعلومات والبيانات حول الظاهرة التي يريد دراستها من واقع الميدان ذاته . فالأبحاث الاثنوغرافية تتطلب آليات معينة لجمع البيانات كتدوين المشاهدات اليومية داخل المؤسسة مثلاً، أو خارجها، وكذلك إجراء مقابلات مع المديرين أو الموظفين أو العمال أو كل من شأنهم تقديم المعلومات المتخصصة للباحث، وتحليل وثائق ويوميات ذات صلة.

التوجه الآخر للمنهج الإثنوغرافي، هو المشاركة، أي مشاركة الباحث مجتمع البحث، لذلك يُسمى عند البعض بـ "الملاحظة بالمشاركة" أي المبدأ الذي يجعل الباحث يعيش الجماعات الإنسانية التي هو بصدد دراستها، حتى يمكنه من تحديد خصائص هذه الجماعة وبشكل دقيق، وقد كان هذا المبدأ، أساس الدراسات الأنثروبولوجية الأولى التي قام بها جورج باتيسون (Gregory Bateson)، وإرفين قوفمان (Erving Goffman) .

وقد يضاف إلى مبادئ المنهج الإثنوغرافي، وعلى خلاف المناهج والمقاربات الأخرى وعلى رأسها البحوث الكمية، عدم وجود فرضيات توجه الباحث الإثنوغرافي في تحقيقاته الميدانية، كما لا توجد لديه تساؤلات إجرائية تحدد له مسار البحث، فهو يحصد ما قد ينتجه من تفاعله بالظاهرة، ففي دراسة للدكتور بوجمعة رضوان حول أشكال الاتصال التقليدية في منطقة القبائل- محاولة تحليل أنثروبولوجي – (بوجمعة: 2007، ص24)، صرح الباحث عن عدم استعماله للفرضيات قائلاً "سنسعى في الإجابة عن تساؤلات هذه الإشكالية انطلاقاً من تفادي بناء افتراضات مسبقة حول الموضوع، حيث سنتجنب صياغة الافتراضات في هذا المجال، .. لأن المعرفة الاجتماعية والثقافية والاتصالية حول المجتمع الجزائري لاتشكل تراكماً معرفياً يمكننا من صياغة هذه الافتراضات في مثل هذا الموضوع بوجه خاص".

إن هذه المبادئ مجتمعة، تجعل من المنهج الإثنوغرافي مقاربة بديلة للمناهج الكمية على الأقل في الدراسات التي لا ترى فائدة من تكميمها، أو لمقاربة الإشكالية الخاصة المرتبط بأبعاد لا يمكن تكميمها أصلاً مثل السلوك والمواقف والتصرفات .. والتي تُعد في الكثير من الأحيان مفاتيح فهم وتفسير مختلف الأدوار التي تلعبها وسائل الإعلام في حياة الأفراد.

مميزات البحث الإثنوغرافي.

ينفرد المنهج الإثنوغرافي عن بقية المناهج، ببعض الخصوصيات الدقيقة تدور معظمها في طبيعة العلاقة بين الباحث الإثنوغرافي والميدان محل الدراسة، فهي علاقة مباشرة – أوينبغي أن تكون كذلك - قائمة على الملاحظة بالمشاركة والمقابلة بمختلف أنواعها، كما أنه يتميز ب:

✓ يقوم على دراسة حالة واحدة في مجتمع صغير أو جماعة معينة، مثل الاتصال غير اللفظي ودوره في التحصيل البيداغوجي لطفل الطور الابتدائي، هنا يمكن أن تكون الحالة، قسم من أقسام مدرسة من المدارس الابتدائية المتواجدة في محيط الباحث.

✓ يتم في البيئة الطبيعية للسلوك الإنساني، أي في البيئة التي يكون فيها سلوك المبحوث غير مُفتعلة و لا مصطنعة، مثل دراسة طبيعة الاتصال الجوّاري (بين الجيران) في المحيط الاجتماعي، هنا قد تكون البيئة المدروسة هي المقهى أو التجمعات داخل الحي، المسجد ..

✓ يهدف إلى فهم السلوك الإنساني، وعن طريق ذلك الفهم يمكن الكشف عن المنطق الذي يبني عليه المجتمع والمعنى الموزع (Bateson, 1972)

✓ يعطي تفاصيل دقيقة وعميقة، أو على الأقل هذا ما ينبغي أن يكون عليه المنهج الإثنوغرافي، فهو عمل دقيق و صارم و محدد لا يغفل أي تفاعل في الظاهرة أو أي شيء يمكنه أن يفسرها أو يفسر جانب من جوانبها.

✓ عدم وجود فرضيات سابقة، يرى البعض أن الظاهرة بالنسبة للباحث الإثنوغرافي، تعد علبة المفاجآت، أي أن ليس لديه فكرة مسبقة عن ما سيجده مسبقاً، فهو سوف يعتمد على الملاحظة لسلوك و السلوك لا يمكن أن تنتبأ به مسبقاً، و عليه فإن المنهج الإثنوغرافي لا يحتاج إلى فرضيات تحتاج إلى قياس.

✓ يعتمد المنهج الإثنوغرافي على الملاحظة المباشرة للباحث، وللوصول إلى هذا المبتغى، عليه أن يكون جزء من الظاهرة المدروسة و يلاحظ ما يحتاج بشكل مباشر دون وساطة، مثل الممارسات اللغوية في موقع التواصل الاجتماعي "الفيسبوك"، هنا يمكن للباحث أن يكون عضو في جماعة الفيسبوك و يقوم بملاحظة اللغة المستعملة للأفراد المشاركين.

واقع المنهج الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية الاتصالية.

للظواهر الإعلامية الاتصالية، بعدين: بعد نفسي يتعلق بعلاقة الفرد بمضامين وسائل الإعلام أو كمنبه في العلمية الاتصالية، و بعد اجتماعي، يرجع منطلق ذلك التعرض والتنبيه إلى طبيعة مختلف الانتماءات الاجتماعية التي يرتبط بها الفرد في حياته الاجتماعية، هذه الأخيرة تزيد من أهمية استعمال المنهج الإثنوغرافي في تحديد العلاقة بين البعدين السابقين، و الظاهرة الإعلامية، حيث باستطاعته (وهذا على غرار المناهج الأخرى) حصر السياقات المختلفة التي يقع فيها الفعل الاتصالي والإعلامي للفرد، فهي على عكس الفينومولوجية التي تخص الفرد من خلال السرد لتجاربه، فإن المنهج الإثنوغرافي يتوجه نحو الجماعات و طبيعة التفاعل – أي الاتصال - القائمة بين أفرادها، حتى

ولو تطلب الأمر، المرور عبر تجارب الشخص الفردية.

حتى ولو لم تكن العلاقة بين المنهج الإثنوغرافي والأبحاث الإعلامية الاتصالية، ممتدة إلى زمن بعيد، إلا أنها كانت حاضرة في الدراسات الأولى منذ بدايات هذا النوع من الأبحاث، فكانت مع دافيد مورلي David Morley الذي كان ينتمي إلى ما يسمى "الدراسات الثقافية" في أبحاثه حول التلقي في ثمانينيات القرن الماضي، وبالذات في خضم الاقتحام المتزايد لتكنولوجيات الحديثة في الأوساط الأسرية (Millerand: 1997, P03)، فكان اعتمادها على المنهج الإثنوغرافي، عبر أربعة محطات أساسية: إدراج مفهوم السياق المنزلي domestique في دراسة التلقي، تحديد مفهوم التلفزيون كتكنولوجيا منزلية، إختيار العائلة كوحدة التحليل و الديناميكية كمفهوم عائلي، و أخيراً التوجهات المنهجية للباحثين نحو الآفاق الإثنوغرافية.

على كثرتها*، نالت الدراسات الإثنوغرافية في الغرب، شهرة كبيرة و تطبيقات واسعة في مختلف الميداني (المبادين) العلمية، ينصب معظمها في حدود محاولة تفسير السلوكات والمواقف والتصرفات الناتجة عن الأفراد في أوضاع اتصالية أو إعلامية مختلفة، فهذه دراسة لديان جيران لجوا DIANE GÉRIN-LAJOIE مثلاً** (Gérinlajoie, 2006)، تطرق فيها إلى الكيفية التي يتكون على إثرها مفهوم الهوية لدى المراهقين الذي يزاوون دراستهم في المتوسطات باللغة الفرنسية في مدينة أنتاريو الكندية، و لذلك اقترب من هؤلاء مقارنة إثنوغرافية مستعملاً بذلك الملاحظة بالمشاركة والمقابلات المتنوعة حتى يصل إلى ما رسمه من أهداف، أي معرفة الطريقة التي فهم المراهقون على إثرها هويتهم، ثم الوصول إلى الكشف عن مختلف أنواع المؤثرات التي قد يتعرض لها هؤلاء في تحديد تلك المواقف.

ورغم هذا "التفوق" في الدراسات الإثنوغرافية الغربية – على الأقل من حيث الكم – على الدراسات العربية و الجزائرية على وجه الخصوص، إلا أننا وجدنا بعض الدراسات القيمة في هذا الشأن لكنها تبقى حالات شاذة لا تسمح لنا بالحديث عن تراكم ثقافة الدراسات الكيفية في مجال الإعلام و الاتصال عندنا، و على حسب اعتقادنا و تقيمنا لهذه الدراسات، وجدنا دراسة الدكتور رضوان بوجمعة جديرة بالذكر في هذا السياق، حيث تناول عبرها أشكال الأشكال التقليدية للاتصال في منطقة القبائل، من خلال دراسة ميدانية شملت ست قرى من قرى ولايات بومرداس، تيزي وزو، بجاية و سطيف، وقد تم تبني مقاربة "أنثروبولوجيا الاتصال" في التأطير النظري و المنهجي لهذا البحث، وأنثروبولوجيا الاتصال، تقترح استثماراً إثنوغرافياً للسلوكيات و الوضعيات و الأشياء الموجودة عند جماعة معينة على أساس أن لها قيمة اتصالية (بوجمعة، 2007، ص 03)، و حتى الباحث نفسه أكد أن دراسته هذه، تبقى من ناحية المعارف الاجتماعية و الثقافية، حكماً أكثر مما هي معرفة مبنية على تراكم معرفي مشكل من كم هائل من الدراسات والأبحاث.

كما يمكن الإشارة في ذات السياق إلى دراسة بوغراري شيخة حول عادات المشاهدة

التلفزيونية لدى المجتمع التارقي (بوغراري، 2014)، و التي يمكن تصنيفها في خانة الدراسات الكيفية التي اعتمدت على المنهج الإثنوغرافي، من خلال تتبعها لسلوكات وتصرفات ثلاثة أسر تارقية تتكلم باللغة التارقية وقامت بملاحظة أفرادها قبل وأثناء وبعد التعرض للتلفزيون ورصد سلوكياته وأخذت مسألة السن والجنس والمستوى التعليمي بعين الاعتبار، كما سجلت أيضاً نوع البيوت وعدد الغرف وأجهزة التلفزيون والتكنولوجيات الأخرى ونوعها، وقد استعملت لهذا الغرض، ما تمليه الدراسات الإثنوغرافية من أدوات بحث، حيث اعتبرت فيها الملاحظة تقنية أساسية من تقنيات البحث، وهذا لغرض ملاحظة القواعد الثقافية الخاصة باستعمال التلفزيون ولمعرفة كيفية التحدث عن هذا الجهاز، لهذا تم اعتمادها على الملاحظة المباشرة كأداة رئيسية للوصول مباشرة إلى تفسيرات مختلف أشكال الاتصال التي تتبلور حول الموضوع، كما استعانت الباحثة من جهة أخرى، على المقابلة نصف موجهة لاستكمال عملية فهم وإدراك البيانات من ميدان بحثها، و التي أفادتها كثيرا -كما تقول- في تفسير واستظهار بعض جوانب الموضوع.

إن مثل هذه الدراسات، و على قلتها، تثبت إمكانية البحث عبر المنهج الإثنوغرافي بكل ارتياحية، بخاصة في الدراسات التي تلعب فيها السياقات الثقافية والاجتماعية أدوار بارزة في إعطاء الأبعاد الاتصالية، معانٍ ومفاهيم دقيقة تفسر على إثرها طبيعة التفاعل بين الأفراد وسلوكاتهم إزاء بعضهم البعض و داخل الجماعات الاجتماعية التي ينتمون إليها، كما يمكن للمنهج الإثنوغرافي، أن يصل إلى تفسير وتوضيح السلوكات الإعلامية، أي تلك التي تربط الفرد الجزائري بوسائل الإعلام، وفي هذا الصدد هناك محاولات طيبة لدراسة هذا الجانب، أي تفسير سلوكات الجمهور إزاء مضامين وسائل الإعلام فيما أسماه البعض بظاهرة التلقي.

مقتضيات المنهج الإثنوغرافي.

يختلف البحث الإثنوغرافي عن الأبحاث الأخرى بمنطلقاته ومنهجياته وأهدافه، فهو يبحث عن معاني السلوكات والتصرفات التي قد تظهر في جماعة معينة، في محيطها الطبيعي وأثناء حدوثها، وهو على هذا، لا ينطلق من خلفيات نظرية أو فرضيات، فقد يتعامل مع ما قد يريد أن يفصح عنه ميدان الدراسة، يقول الأستاذ قسايسية " وتستند خطوات البحث إلى مختلف وحدات التحليل: الفرد باعتباره موضوع اجتماعي وذات فردية (Social Subject and Individual Subjectivity)، والجماعة والعلاقات ما بين الذات المشتركة (Intersubjective) في تجربة الحياة اليومية للجماعة"، ويضيف قائلا " فالمقرب الإثنوغرافي، يركز على فهم السلوك في سياق اجتماعي عبر مشاركة الباحث في الوضعية المدروسة مشاركة فاعلة ضمن الفريق موضوع الدراسة".

أما فيما يخص المنطلقات فنوجزها في ما يلي:

ينطلق الباحث في المنهج الإثنوغرافي من مفهوم نظري وفلسفي مناقض لمفاهيم البحوث

التقليدية. ففي حين يسعى البحث الكمي الإحصائي إلى تحديد الأسباب، والتنبؤ وتعميم النتائج، يسعى البحث الإثنوغرافي إلى التبصر، والفهم، والاستكشاف، ودراسة السلوك الإنساني من خلال التفاعل بين الباحث والمبحوثين، وعبر الفهم المتعمق لشعور وأحاسيس وأفكار ومعتقدات المبحوثين، ينتج من هذا التحليل نوعاً من المعرفة يختلف عن نتائج البحث الكمي (Miles and Huberman: 1999)، حيث لا ينظر إلى الثقافة على أنها مجرد انعكاسات لقوى بنائية، وإنما كنظام للمعاني والأفكار واللغة والطبقة الاجتماعية.

يهدف المنهج الإثنوغرافي إلى وصف وتحليل الظاهرة محل الدراسة، وهو هذا لا يهدف إلى الوصول إلى نتائج يمكن تعميمها، "لذا فإن وضع النظريات والفرضيات والقياسات قبل الدخول إلى الميدان، سوف يشوه فهمنا لما يدركه الفرد الذي نقوم على دراسته ذاتياً.. والحقائق الاجتماعية لا يمكن فهمها أو إدراكها إلا من خلال معطيات ومعانيها بالنسبة للأفراد في ذلك المجتمع" (الحمداني وآخرون، 2006: 176)

كما يعتمد المنهج الإثنوغرافي على افتراض أن السلوك الإنساني يتأثر تأثراً كبيراً بالبيئة التي يحدث فيها، وعليه، فالفهم الحقيقي للسلوك يتطلب منا فهم تلك البيئة، وأول السياق، بصورة متكاملة، ولذا فإن جمع البيانات والمعلومات يجب أن يجري فيمواقفها وسياقاتها الطبيعية. وحيث تتم عملية تفسير البيانات في إطار السياق ذاته، كما أن تعميم النتائج ليس هدفاً، فالمهم هو الوصف الدقيق والمتعمق للموقف موضوع الدراسة، (Mc millan and Schumacher, 2001: 420)

أما المنطلقات المنهجية التي تُعد أساسية في طبيعة هذا المنهج وأسلوبه العلمي، فهي تتميز بالمرونة، فلا توجد آلية موحدة لجمع المعلومات وتحليلها، فهو يكيف ما قد يجده في الميدان ومن خلال احتكاكه اليومي مع الظاهرة ومكوناتها، يلاحظ مستجداتها، يفسر سلوكيات أفرادها وتصرفاتهم، يقابلهم للاستفسار عن ما لم يستطيع إعطائه دلالة علمية.. وبهذا يتيح لنا المنهج الإثنوغرافي، إطاراً منهجياً عاماً يمكن الباحث من خلاله أن يساهم بابتكارات وإضافات منهجية، وذلك من خلال رؤيته الإبداعية ومن خلال قدرته على جمع أكبر قدر من المعلومات.

و للوصول إلى المبتغيات السابقة، يعتمد المنهج الإثنوغرافي على آليات منهجية نلخصها في الملاحظة بالمشاركة، والمقابلة كأداتين أساسيتين في جمعه للبيانات، لكن في نفس الوقت فهي لا تعدان الوسيلتين الوحيدتين للقيام بذلك، "لا يركز المنهج الإثنوغرافي على الملاحظة بالمشاركة فقط، بل على العديد من الأدوات العلمية على شاكله الملاحظة المباشرة، والمقابلة نصف موجهة، والمحادثة غير الرسمية، والمحادثة المعمقة، والقصص والحكايات، كما يعتمد إلى جانب ذلك، على جمع المواد المادية المنتجة من قبل الأفراد مثل الأفلام والفيديوهات، والصور.. هذا التنوع في الأدوات المنهجية، تجعل مصادر معلومات الباحث متنوعة، مما يؤمن من خلالها نتائجها" (Silverman, 2011: 111).

إن التقنيات السابقة الذكر، تُعد من الأدوات الكيفية التي تتيح للباحث تأويل وتفسير

المعطيات المجمعة في السياق الذي أنتجها، وبهذا فهي تتيح للباحث إمكانية تفسير المعاني والأوضاع والتجارب الشخصية، في سياقات أوسع مما تتيحه الدراسات التي تعتمد على التفسير الرمزية فقط، إذ تؤمن بالبحوث الكيفية بصفة عامة و المنهج الإثنوغرافي بصفة خاصة، بأن السلوك الإنساني مرتبط دائماً بالسياق الذي يحدث فيه، بل أبعد من ذلك فهذا السياق هو الذي يعطي معاني الأفعال ومخرجات الأفراد من سلوكات وتصرفات وخبرات ومواقف.

الأهداف العلمية للمنهج الإثنوغرافي.

للمنهج الإثنوغرافي عدة أهداف تصب مجملها في محاولة فهم و التعرف على الظواهر والإشكاليات التي لا نعرف عنها شيء(،) أو لا تتوفر حولها معلومات كثيرة، وبهذا فهو يستنطق الميدان للوصول إلى تحديد – وبدقة كبيرة- آليات التفاعل بين الأفراد ومعاني ما يتم تبادله من رموز وأشكال ومواقف وسلوكات، يصعب لمنهج آخر الوصول إليها بتلك الصفات.

يرى كل من شواليتس شاه و هنج Chwalisz, Shah et hand أن هدف البحوث الإثنوغرافية، هو فهم المعنى الذي يعطيه الفرد، للأحداث والأوضاع التي يعايشها في حياته اليومية؟، كما يحاول إعطاء تفسير للصيرورة التي من خلالها تبنى تلك المعاني و التماثل لوضعية اجتماعية معينة (Chwalisz, Shah et Hand, 2008 : 55).

كما يسعى المنهج الإثنوغرافي من جهة أخرى، إلى محاولة استخلاص النظريات والمعارف من الميدان محل الدراسة، باعتباره ينطوي على تحليل ودراسة جهتين في الظاهرة، المتغيرات الداخلية التي يلتقي بها الباحث في تصرفات المبحوث، والمتغيرات الخارجية التي قد تحدث على الظاهرة تغيرات تفسيرية ملحوظة، وقد تكون الجهتين متداخلتين في تشكيل وإعادة تشكيل البناء الاجتماعي للفرد ومحيطه.

أسباب العزوف.

يبدو من خلال ما طرحناه سابقاً، أن المنهج الإثنوغرافي، يمتاز بأريحية منهجية تجعله أسهل في اعتماده من بعض المناهج الأخرى التي نالت قسطاً من الاهتمام العلمي لدى باحثينا. فلماذا العزوف الملاحظ عن تطبيقه في الدراسات الإعلامية الاتصالية عندنا؟.

لا ندعي أننا سوف نقدم الإجابة الوافية القطعية للسؤال السابق، لكن إجابتنا سوف تكون حوصلة لما توصلنا إليه من خلال ملاحظتنا الكيفية لمختلف الأسباب التي تجعل من هذا المنهج ضعيف الاستقطاب للشغف العلمي لدى طلابنا وباحثينا، وهي تنقسم إلى قسمين:

أ – ضعف التكوين:

ضعف البرامج البيداغوجية المسطرة لمختلف أطوار التكوين، في المنهجية بصفة عامة وغياب

شبه التام للمنهجية الكيفية فيها، مما يجعل الكثير من طلابنا لا يعرفون حتى تسمية المنهج الإثنوغرافي.

ضعف بعض أساتذة المنهجية المكلفين بإدارة تلك المواد، فهم بدورهم كانوا عرضة للسبب السابق في تكوينهم الجامعي، و القلة منهم من اجتهد بشكل فردي في فهم وتطبيق المنهجية الكيفية في إنجاز بحوثهم.

السبب السابق، أنتج ضعف من نوع آخر، وهو قلة التدريب على الأدوات المنهجية التي يعتمد عليها المنهج الإثنوغرافي على الأقل فيما يخص الملاحظة بالمشاركة و المقابلة، وهذا يجعل البحوث الكيفية في نظر طلابنا و باحثينا سهل ممتنع يصعب اجتيازه، لأن هذه التقنيات تتطلب مهارات عالية في الملاحظة والتسجيل.

ب -أسباب تقنية.

من بين خصائص المنهج الإثنوغرافي كما رأينا ذلك سابقاً، هو عدم وجود فرضيات مسبقة ومحاور صارمة بالأسئلة التي تقود البحث، فهو منهج يتميز بالمرونة في الطريقة والتحليل، كما أنه بحث غير مقنن، فلا يخضع لضبط سابق للمتغيرات، كما أن له القدرة على الكشف عن الظواهر العفوية التي تظهر من خلال الممارسات والسلوكيات غير المقصودة خلال إجراءه مما يخلق بعض الصعوبات خاصة في بداية البحث، وهذا ما حصل مع كثير من الباحثين الإثنوغرافيين الذين لم تتبلور أسئلة الدراسة معهم، إلا بعد مرور فترة من الزمن، استطاعوا من خلالها التخلي عن الكثير من الأفكار التي توقعوها قبل دخول الميدان، و لجأوا إلى أفكار أخرى شكلت محور اهتمامهم أثناء وجودهم في الميدان، (حاج حامدري، 2011، ص 14).

من بين شروط المنهج الإثنوغرافي، أن يشارك الباحث ميدان بحثه لفترة كبيرة بعضهم حددها ما بين سنتين إلى عشرة سنوات للبحوث الطويلة، الشرط الذي لا يتماشى مع متطلبات البحث العلمي الأكاديمي، التي يتم تحديد مدتها، في أقصى الظروف، بثلاث سنوات^{***} (لكل محطات البحث) المدة التي لا تسع الباحث من معايشرة الظاهرة معايشرة دقيقة تسمح له بالإحاطة بكل تفاصيلها.

إذا كان المنهج الإثنوغرافي، لا يشترط دخول الباحث إلى ميدان دراسته وهو مشبع بالأفكار المسبقة و القوانين العلمية والنظريات المفسرة لبعض الظواهر، قصد دراستها أو قياسها، فهذا الشرط يخلق إشكالية قدرة الطالب عندنا على مواجهة ميدان البحث بتكوين نظري يسمح له باقتحام ذلك الميدان بذلك الشرط؟، نحن لا نشك في قدرات الطالب ولا في طبيعة تكوينه المعرفي الخاص بميدان الإعلام و الاتصال، لكننا و من خلال البرامج التكوينية المبرمجة في كليتنا للإعلام، يظهر لنا ضعف التوجه نحو المواد ذات الطابع الاجتماعي والإثنوبولجي.. أي المواد التي تسمح للباحث بالتزود بمعارف قادرة على تفسير السلوك الملاحظ و المواقف التي قد تصادفه في بحثه الميداني، فهو في

الأغلب الأعم لا يعرف ماذا سيلاحظ؟ وكيف سيلاحظ؟ وكيف يفسر ما يلاحظه؟.

العائق السابق، نتج عنه إشكال آخر يتعلق ببعض الدراسات التي أُنجزت في هذا الشأن، وبغياب الخلفيات السابقة، وصلت هذه الدراسات إلى مجموعة من التفسيرات غير الموضوعية مبنية على أهواء الباحث الشخصية و طبيعة إدراكه للأشياء، وتفسيره الخاص لها، فبقيت عبارة عن دراسات سطحية تكاد أن تقترب إلى الأفكار العامة المتداولة بين عامة الناس، فهي لم تشكل تراكم معرفي في هذا الشأن حتى يأخذها الطلبة الباحثون كمقعد يستبصرون به أو يحفزهم على التوجه نحو الدراسات الكيفية بصفة عامة.

إن الوضع العلمي الذي هو عليه المنهج الإثنوغرافي بصفة خاصة، و الدراسات الكيفية بصفة عامة، ليس خاص بحالة البحث العلمي في الجزائر فقط، بل هو كذلك في الكثير من الدولة العربية على وجه الخصوص، فقد عبر أوراعي أحمد عن هذه الحالة قائلاً "فالإثنوغرافية في العلم العربي، ما زالت تعاني التشتت و عدم إثبات هويتها و أحقيتها بالتطبيق، بوصفها منهجاً بحثياً من مناهج البحث والعلوم الإنسانية والاجتماعية، أما تدريسها في الجامعات فمحدود إن لم نقل منعدم، وربما يرجع ذلك إلى ضعف الاهتمام به بوصفه أحد المناهج البحثية، سواء من ناحية عرضه نظرياً، أو تطبيقه ميدانياً" (أوراعي: 2007، 54).

الخاتمة.

ليس الغرض من هذه المحاولة إلا فتح أبواب النقاش واسعة على البحوث الكيفية و منه المنهج الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية الاتصالية عندنا، كما تسعى إلى التشجيع على تبنيها في أعمال الطلبة بما يخدم هذا النوع من الدراسات في الاتجاهات العلمية الصحيحة، ورغم أسباب العزوف التي أتينا عليها سابقاً، فإن المنهج الإثنوغرافي يحمل في طياته إيجابيات أكثر من السلبيات علاوة على أنه الوحيد الذي يمكن من خلاله دراسة و تحليل و تأويل سلوكيات الأفراد والعلاقات التي ينسجها هؤلاء في مجالاتها الطبيعية.

هناك مجالات كثيرة لم تنل حظها من البحث في ميدان الإعلام والاتصال، فإما لأنها غير واضحة المعالم بعد، مثل استعمال الإنترنت و الاشباعات المحققة منها، أو لأن أدوات التحليل المنهجية المتوفرة لطلابنا إلى حد الآن لا تحظى بالفعالية في البعض منها، ولذلك نحن نعتقد أن المنهج الإثنوغرافي هو باب النفاذ للذين يريدون المغامرة العلمية في دراسة الأدوار التي تلعبها وسائل الإعلام في حياة الناس مثلاً، أو دراسة السلوك الاتصالي للجمهور، أو تحليل السلوك الخطابي، مقارنة النظم اللغوية وإشكالية أدائها، و البحث في سلوك المتلقي، و جمهور الإنترنت .. وغيرها من المواضيع.

الهوامش

* لا يسع المجال في هذا المقال، على ذكر الكثير من الدراسات التي جاءت حول الدراسات الكيفية في مجال الإعلام والاتصال، فقد يجد القارئ الكريم الكثير منها عبر صفحات الواب، أردنا فقط الإشارة إلى أمثلة و تواريخ تثبت صدارة هذا النوع من الدراسات في الغرب عنه في الجزائر.

**

أنظر إلى بعض من هذه الدراسات التي تعرض لها الباحث بوجمعة رضوان في أطروحته للدكتوراه والمشار إليها في قائمة المراجع.

تختلف هذه المدة من مستوى إلى آخر، وثلاث سنوات هي المدة المخصصة للإنجاز أطروحة دكتوراه، أما مستوى الماجستير في لا تتعدى سنة غير كاملة.

المراجع

- أوراغي، احمد (2007). "الدراسات الانثربولوجية في جامعة تلمسان الواقع والأبعاد". ورقة عمل مقدمة للملتقى الأول حول وضعية البحث، 10 ديسمبر، 2007 م، الجزائر. — الانثربولوجية في العالم العربي. تبسه.
- الحمداني، موفق وآخرون (2006). مناهج البحث العلمي. عمان: دارالمسيرة.
- بوجمعة رضوان (2007). أشكال الاتصال التقليدية في منطقة القبائل- محاولة تحليل أنثربولوجي — أطروحة دكتوراه دولة في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر3: كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم علوم الإعلام والاتصال.
- بوغراري شيخة، (2014)، عادات المشاهدة التلفزيونية لدى المجتمع التارقي، رسالة الماجستير، جامعة الجزائر3 كلية علوم الإعلام والاتصال. قسم الاتصال . فرع أبحاث الجمهور
- حامدري حاج ، كترة (2011). دور التلفزيون في تشكيل بعض القيم لدى المرأة الريفية الجزائرية - دراسة إثنوغرافية على عينة من الريفات الجزائريات — مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر3 — كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم علوم الإعلام والاتصال.
- Baptiste Cléret (2013). **L'ethnographie comme démarche compréhensive : immersion dans les dynamiques consommatoires du rap en France, RECHERCHES QUALITATIVES ? Vol. 32 (2).**
- Bateson Gregory (1972). (form and pathology in relationship), In : **Steps to an ecology of mind : collected essays in anthropology, psychiatry, evolution, and epistemology, sanfrancisco : chandler publication company.**
- CHWALISZ, K., S.R. SHAH et K.M. HAND (2008). (Facilitating rigorous qualitative research in rehabilitation psychology) **Rehabilitation Psychology**, vol. 53.
- Côté daniel et Gratton Danielle,(2014). **Méthodes qualitatives, quantitatives et mixtes dans les recherches en sciences humaines, sociales et de la santé, Québec : Les presse de l'université du quebec.**
- GÉRIN-LAJOIE DIANE(2006). **L'utilisation de l'ethnographie dans l'analyse du rapport à l'identité, Éducation et Sociétés, N° 17, "P74.**

- Millerand Florence (1997). David Morley et la problématique de la réception, Université de Montréal.
- Miles, Matthew and Michael . Huberman (1999). Qualitative Data Analysis, Thousand Oaks : Sage Publication. USA.
- McMillan, j & Schumacher, S. (2001) Research in Education : A Conceptual Introduction. Longman Publications. New York. USA.
- SILVERMAN, David. (2011). (Ethnographic observation), dans **Interpreting Qualitative Data. A Guide to the Principles of Qualitative Research**, Los Angeles, Sage Publications.